مشاهدات وانطباعات
يكتبها/ شائف الحسيني

الجزء الثالث
الحلقة الرابعة

ثلاثون يوماً في الصين:

المتاحف الذاكرة الحية في الثقافة الصينية

(يونغ لين) مدينة عريقة بأصول المهنة التجارية

«أخبرنا مسؤول المتحف عن كثرة الأنشطة النسائية في هذه المدينة التي أصبحت نساؤها تاجرات وصاحبات حرف ومهن، وأغلبهن هنا متعلمات وتاجرات، امتداداً لتراث قديم ومتواصل حتى عصرنا هذا، لارتباط السكان جميعاً في هذه المدينة بالعمل التجاري، وانعكاساً لوعي المرأة وحصولها على قسط وافر من التعليم، فإن ذلك أدى إلى أن يكون الأطفال متعلمين بالضرورة، لقيام الأمهات بعمل المدرس في المنزل وتنشئة الأطفال على المعارف الأولية للأعمال التجارية، ليصبحوا في المستقبل تجاراً ناجحين كآبائهم وأمهاتهم.

□ سفير بلادنا عبدالملك المعلمي في الجبل الاصفر

كان المتحف بديعاً في محتوياته، ولولا ضيق الوقت لاستكملنا مشاهدة معروضاته، لكنه كان أمامنا زيارة استطلاعية أخرى للسوق القديم في المدينة، والذي وجدنا فيه أشكالاً متنوعة للأواني النحاسية المزخرفة التي كان بعضها للاستخدام المنزلي والبعض الآخر للزينة، كما توجد في هذا السوق كل أنواع المجوهرات التي يزخر بها السوق على غرار أسواق صنعاء القديمة، وسوق كريتر في مدينة عدن، وقد لاحظنا مظاهر نظافة لافتة في أحياء السوق وأزقته التي رصفت بالأحجار على طريقة الأسواق القديمة في العالم، وتمتد النظافة والترتيب إلى داخل المحلات التجارية نفسها.

وفي هذا السوق بضائع وسلع وفيرة، بمختلف أنواعها وأشكالها، قديمها وحديثها كما أن مدينة (يونغ لين) تحظى بميناء تجاري على ضفة النهر، تنقل من خلاله البضائع والسلع إلى مناطق الصين الداخلية، وإلى الموانئ الواقعة على سواحل شرق الصين، لتصديرها إلى الأسواق العالمية.

حفلة على طاولة شرب الشاي الصيني

● في إحدى محلات بيع الشاي في سوق المدينة عُرضت علينا ثقافة الصينيين خلال حفلات اللقاء وشرب الشاي، ولأول مرة نتعرف على الطقوس المتبعة في مثل هذه المناسبات، حيث كنا نعتقد أن احتساء الشاي أو القهوة لا تترافق معه أي عادات وطقوس على ذلك النحو الذي شاهدناه بأعيننا في هذا المكان، وكان تصورنا محصور في أن احتساءنا للشاي هو لمجرد تذوقه، والتعرف على مستوى جودته لا أكثر، وهو المعتاد في أي مقهى أو محل للبيع بالجملة، لكن الأمر هنا يختلف عما في أذهاننا من تصورات، فعندما جلسنا على الطاولة، إذا بإحدى النساء تعزف مقطوعات موسيقية صينية على آلة تشبه ما يسمى بالقانون أو المعزف، وبجانبها فتاتان جميلتان تحضران الشاي للضيوف على وقع تلك الأنغام الموسيقية، بدءاً بوضع أبريق متوسط الحجم مملوء بالماء على موقد نار لبرهة من الوقت، حتى يغلى ثم تحضر الأكواب الخزفية البيضاء التي تبرق من شدة نظافتها، وتوضع على الطاولة، يتبع ذلك تحضير إناءين آخرين بداخلهما نوعان من أوراق الشاي الأخضر، والأحمر وفي الخطوة التالية يتم تنظيف الأكواب بالماء الساخن، ثم يوضع قدر معين من أوراق الشاي فيهما – بحسب الطلب –، وقد تضاف زهرة الياسمين إلى الشاي – حسب الرغبة–، يتلو ذلك صب بعض الماء الساخن إلى الأكواب لتنظيف أوراق وتليينها، بعدها يصب الماء المغلي في الأكواب التي تغطى وتترك لبرهة من الوقت ثم تقدم للضيوف، والمثير في الأمر أن طريقة شرب الشاي تختلف عند المرأة والرجل، فالمرأة – مثلاً – لا تبتسم أثناء شرب الشاي حتى تبدو أسنانها، ومن جهة أخرى تقوم برفع غطاء الكوب وتوجهه نحو من يقابلونها في الطاولة، حتى لا تظهر شفتاها عند الشرب، وعندما تتوقف بعد الرشفات الأولى يعاد الغطاء على الكوب، ثم تعاود العملية من جديد.. وهكذا.

أما الرجل فإن طريقة شربه للشاي تختلف عن المرأة، يمسك بالكوب ويرفع غطاءه ويوجهه نحو المقابلين له في الطاولة مع ترك فتحة صغيرة من طرف الغطاء، ثم يمسك برأس الغطاء ويشرب.. وهكذا.

كانت تلك جلسة ممتعة ولطيفة، وقد عرض علينا الشاي بطريقة تسويقية رائعة، بدءً بأجود أنواع الشاي منه إلى أقل درجات جودته، وعند تناولنا للشاي الأحمر الفاخر، وجدنا له نكهة ومذاقاً ممتازاً يختلف عما اعتدناه في بلادنا من أنواع الشاي الذي نتناوله، وأمام هذا العرض المغري اشترينا بعض أنواع الشاي الصيني للذكرى.

□ عصفور على شجرة في الجبل الأصفر

أنواع الشاي الصيني

● تتعدد أنواع الشاي الصيني خاصة الأخضر منه، الذي يتناوله الناس في سائر أنحاء الصين وهو النوع المرغوب لديهم، ويعود تاريخ وجوده في الصين إلى قبل مليون عام – حسب قولهم –، لكنه ليس نوعاً واحداً، بل توجد منه أنواع متعددة، منها الفاخر والمتوسط والأقل جودة، ويتفاوت ثمنه حسب نوعيته، كما يوجد الشاي الأحمر الذي يتميز بمذاقه الجيد، ويعتبر من فئة الدرجة الأولى لأنواع الشاي، وغالباً ما يتم تصديره إلى الخارج، ويصل ثمن الكيلو جرام منه إلى ما يزيد عن (١٠٠$)، وما يجعل أثمان بعض الشاي مرتفعة والأخرى منخفضة هو النوعية من جانب ومواقع زراعته من جانب آخر، فإن كان مزروعاً في المرتفعات الجبلية ومن فصيلة معينة وله موسم زراعي أطول من الأنواع الأخرى، فإن إنتاجه يكون قليلاً وجودته أعلى، وبالتالي فإنه يكون أغلى ثمناً من الأنواع الأخرى، أما إن كان مزروعاً في السهول ويعتمد على مياه الأنهار وموسمه الزراعي قصير، فإن جودته تقل وأسعاره تنخفض أيضاً.

وعندما سألنا عن سعر الكيلو جرام من الشاي الأخضر ذي الجود العالية بغرض الشراء، قيل لنا أن ثمنه (٨٠٠) يوان بالعملة الصينية، أي ما يعادل (٢٥٠٠٠) ريال يمني.

غادرنا المكان بعد أن أضفنا لما نملكه من معرفة متواضعة عن الصين معلومة جديدة عن ثقافة شرب الشاي في الصين، وأنواعه، والذي غدا جزءاً من ثقافة المجتمع، ومن الجدير هنا الإشارة إلى أن الصينيين نادراً ما يتناول بعضهم القهوة في الوقت الراهن، أما ماضيهم فلا وجود فيه للقهوة، سواءً في مقاهيهم أو في منازلهم، وصار لها وجود محدود في الوقت الحاضر نتيجة انفتاح السوق الصينية على العالم الذي صاحبته بعض المتغيرات في حياة الصينيين في المأكل والمشرب والملبس.

نساؤها تاجرات.. وتنشئة الأطفال على المعارف الأولية للأعمال التجارية

التوجه إلى المطار للعودة إلى العاصمة بيجين

● كان الوقت مساءً عندما أكملنا الزيارة حسب البرنامج المعد لها، وتوجهنا بعدها إلى المطار وقد حملنا في رؤوسنا أجمل الانطباعات عن الزيارة، وأثقلنا بالهدايا الرمزية التي قدمت لنا في المناسبات وبالذات في مدينة (خفي) عاصمة مقاطعة (أنهوي) أثناء الحفل الذي أقيم لتكريم الأطباء الصينيين الذين عملوا في اليمن بمناسبة مرور أربعين عاماً على إرسال أول بعثة طبية إلى اليمن، فعادات الصينيين وتراثهم الأصيل يتضمن تقديم الهدايا لضيوفهم، ولا يتحقق إكرام الضيف عندهم إلا بتقديم هدية تعبر عن المودة والسرور بوجود الضيف بينهم.

وصلنا المطار المتواضع الذي يقع في ضواحي المدينة، وهو رغم صغره إلا أنه يحفل بكافة الخدمات الأساسية، من صالة انتظار لكبار الضيوف إلى قاعات عامة متوسطة لانتظار المغادرين، ويوجد فيه كذلك مقهى وسوق صغير، ومكاتب لمسؤولي الأمن والأجهزة المعنية، وهو بذلك يحقق الغرض من وجوده ويسهل انتقال السكان في هذه البلدة الصغيرة إلى مختلف أنحاء الصين.

أخبرنا بأن إقلاع الطائرة سوف يتأخر بعض الوقت بسبب هطول الأمطار على مدينة بيجين والتي صاحبها هبوب رياح شديدة أوقفت حركة الطيران، فقضينا ذلك الوقت في صالة المطار إلى أن حان موعد المغادرة وأذن لنا بالرحيل.

ودعنا مضيفينا وشكرناهم على حفاوتهم البالغة وما قدموه لنا من خدمات كنا نود لو أتيحت لنا فرصة لمبادلتهم هذه الحفاوة والود، وبذلك اختتمنا رحلة رائعة في وسط شرق الصين ستصبح مع مرور الزمن ذكرى لا تنسى، بل أنها من أجمل الأيام التي قضيناها في هذه البلاد الجملية بأرضها وناسها.

هبطت بنا الطائرة بعد رحلة تجاوزت الساعة ونصف، وودعنا بعضنا في المطار وسار كل منا في اتجاه، وبذلك انتهت الرسميات وبدأنا مشواراً جديداً لاستكمال ما بقي من مواقع سياحية لم نزرها قبل مغادرتنا عائدين إلى أرض الوطن الحبيب ويبقى السؤال: ما هي المعالم التي لم نزرها في مدينة بيجين التي تزخر بأهم المعالم التاريخية والتراثية الصين، لتكتمل لدينا الصورة، ونخرج بحصيلة مفيدة وجيدة وشبه مكتملة للرحلة؟!

مهرجان الفنون العربية

● بعد أن أصبحنا طلقاء غير مقيدين بأي برنامج يلزمنا بمواعيد محددة، بدأت أرتب أوراقي وأسترجع مجريات الأسبوع المنصرم الذي قضيته سائحاً ومتجولاً في مدينة بيجين وخارجها في مقاطعة (أنهوي) وفي الجبل الأصفر على وجه التحديد والذي كان مثيراً للدهشة في جمال طبيعته، وروعة الحكايات الكثيرة التي تروى عنه، وبينما أنا أخط على الورقة رؤوس أقلام للبرنامج القادم، وما ينبغي أن أسجله من انطباعات خرجت بها من الزيارات السابقة، إذا بجرس الهاتف يرن في الغرفة كان الوقت آنذاك الساعة العاشرة مساءً تقريباً، رفعت السماعة ليتبين لي أنه المتصل هو صديقي الودود سعادة السفير المهندس عبدالملك المعلمي يخبرني بأنني مدعو يوم غد الموافق لتاريخ ٢٠١٠/١/٢٠م لحضور مهرجان الفنون العربية الذي يقام في حديقة الشمس بالعاصمة بيجين والذي تنظمه ممثلية الجامعة العربية في الصين وعلى رأسها السفير محمد حسن شبو – رئيس بعثة الجامعة وفريق عمله في مكتب الجامعة العربية بالتعاون مع وزارة الثقافة الصينية، شكرت سعادة السفير قائلاً له: يظهر أني قد شغلت جزءاً من وقتك للتفكير في كيفية مساعدتي على قضاء وقتي هنا دون أن أشعر بالملل وعلى كل حال شكراً لكم على هذه الدعوة الكريمة، ويسرني تلبية الدعوة.

التقينا صباح اليوم التالي حسب الموعد المحدد وقد لبس كل منا ما يليق بهذه المناسبة وركبت السيارة إلى جانب السفير، ثم توجهنا إلى مقر العرض الفني في الحديقة، وصلنا إلى هناك، وكان كل شيء مرتباً وعلى ما يرام، وقد صفت عدد من الكراسي المتواضعة حول الطاولات، ونصبت مظلات بيضاء زاهية على كل طاولة للوقاية من حرارة الشمس، فدرجة الحرارة في بيجين في شهور مايو، يونيو، يوليو تكون مرتفعة، وتصل أحياناً إلى ٤٠ درجة مئوية.

كانت الأرض أمامنا وتحت أقدامنا مفروشة بالبساط الأخضر، الذي يتناسب لونه مع طبيعة الموقع في الحديقة الخضراء، وعيوننا مصوبة نحو قاعة العرض.

بدأ المذيع الصيني يصدح بلغة عربية فصحى: سيداتي سادتي.. أيها الحضور الكريم نحتفل في هذا اليوم العظيم بمهرجان الفنون العربية هنا في بيجين، والذي سيمتع الجمهور الصيني بأجمل المعزوفات والرقصات العربية الجملية والأزياء الرائعة الأنيقة والفن العربي الأصيل، وهو ما سيعمق أواصر الصداقة الصينية العربية، فإلى هذا الحفل البهيج.

بدأت الفرق الفنية على إثر ذلك تتولى تباعاً أمامنا على منصة العروض، وكانت الفرق من المشرق والمغرب العربي تؤدي الرقصات الجملية، وتعرض الأزياء بأسلوب رائع وجذاب، وأنا مستمتع بما أرى وحائر فيما وراء هذا المشهد من تداعيات في الساحة العربية في المغرب وفي المشرق، وتتجاذبني الحيرة بين ما أشاهده وبين ما أفكر فيه من واقع عربي مؤلم.

شراب الشاي الصيني له طقوسه وعاداته بحضور المقطوعات الموسيقية الفنون العربية تصدح في حديقة الشمس بالعاصمة بيجين

□ منظر عام من «الجبل الاصفر»

□ السفير الصيني بصنعاء والسيدة حرمه في الجبل الاصفر